

حوار الحضارات لدى أبي حيان التوحيدي

د. عبد الكريم محمد حسين⁽¹⁾

لا شك في أن موضوع حوار الحضارات قديم قدم الحضارة نفسها، والحضارة قديمة قدم الإنسان، واختيار أبي حيان التوحيدي دون سواه اختيار يقوم على تشابه في الشروط الحضارية بيننا وبينه من غير مطابقة، لكن باتفاق في صور الأحوال، واتفاق في الضعف والتراجع، واتفاق في الهزائم أمام الفرنجة.

يضاف إلى ذلك تراجع في مناهج الاستفادة من الحضارات الناهضة بعد الحضارة العربية الإسلامية التي قضى على صورتها المنظمة نهائياً بالقضاء على الدولة العثمانية — مهما يكن رأينا فيها مختلفاً — ذلك أن الحضارة منجز من منجزات المدن، والمدن أنجوت الدول، لكن مقومات الحضارة هي قوم ومدنية، وثقافة، والثقافة جزء من المدنية، ومنها تنبعث مناهج التربية، ومن شروط المدنية التحضر في العلم والتقدم في المعرفة الحسية، والمعنوية، وفق نظرية الأطوار المتوازنة.

فإذا اختل التوازن بين هذه الأطوار تعرض أهل الحضارة إلى اختلال التوازن، مما يقود إلى الصراع بين التقدم والتخلف في بنائها الداخلي، فتصبح كالشجرة جزء منها يابس وآخر حي، وهذا مرض من أمراض الحضارة يجعلها قابلة للسقوط أو الانهيار على يد الغزاة والطامعين ممن تقدموا على أهلها مادياً، ولو كانوا دونهم في حقل المعنويات، فإن كان الاختلال في التوازن شاملاً كان الانهيار فاضحاً، وتظهر المقاومة للإقناع بانعدام السقوط التام.

⁽¹⁾ أستاذ جامعي، وباحث سوري.

الحضارة تقدم في حياة الإنسان يشمل علاقته بالكون وعلاقته بأخيه الإنسان، وقوى الطبيعة، ووسائل المعرفة، وتقنيات العلم، ومنجزاته. ولعل العلم أهم مقومات الحضارة بعد القوم أو الإنسان لذلك جعلت الرسالة العربية العلم شرطاً للانتماء الحضاري إليها؛ لقول الرسول العربي ﷺ: «ليس مني إلا عالم أو متعلم»⁽²⁾ ولقول علي - كرم الله وجهه - لكميل بن زياد النخعي - رضي الله عنه - «الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجا، وهمج رعاع أتباع كل ناعق»⁽³⁾.

واختيار القرن الرابع الهجري دون سواه من أيام الحضارة العربية الإسلامية؛ لأنه قرن الحوار الحضاري الذي كانت ثمرته سقوط الدولة العباسية، وتمزقها إلى دويلات، بعد تمزق عرى الفكر الحضاري العربي، مما قاد إلى سقوط الحضارة العربية الإسلامية بعد بلوغها ذروة الترف والتمدن ودوام السلطان في أسرة الحكم قروناً طويلة، وغلبة العجم عليها، وبقيت حيوية الرسالة تتأهض أعداءها دفاعاً عن الكيان الحضاري للأمة، فكانت حطين، وكانت عين جالوت على أيدي أقوام من غير العرب، ولو كان العرب جزءاً من وقود المعركة، وهم المغبيون عن الفعل الحضاري في الدولة بعد رحيل بني أمية، فكانت دولة بني العباس في عصرها الثاني خادمة شهوات الترف، والأفكار الوافدة التي انتهت بإنهاء حكمهم بعد انتهاء خدمتهم، كعادة الغزاة دائماً، يأكلون خدَمهم قبل خصومهم الظاهريين؛ لأنهم عرفوا ضعفهم بآياته المشهورة، وهي كثرة الضرائب والبطش والفتن التي جعلت الناس يرون الخلاص بزوال تلك الدولة. فقد كان للحضارات أقوامها وثقافتها ومناهجها التربوية يد كبرى في سقوط دولة بني العباس، كما كان لشيخوخة الحضارة وتعب حملة مشاعلها والقائمين على ثغورها ما يدعو إلى غلبة عوامل السقوط، ولا أقول الفناء.

وفي هذه المقالة تناوش للرؤية الحضارية عند أبي حيان، وهي إجابة عن سؤال: كيف تنتقل الحضارة من أمة إلى أمة؟ وما موقف الحضارة الناهضة من الحضارات التي ذهبت ربح قوتها تحت ضغط هدر الطاقات في الشهوات، وهدر الأموال في المتع الزائلة، وتأجير الولاة على المقاطعات لمن يدفع جباية أكثر، من غير النظر إلى القانون، أو جوهر الوعي الحضاري الكامن في مدنية الأمة وثقافتها وتربيتها وأعرافها، أو عقودها الاجتماعية!!!.

وفي البحث إجابة عن تساؤل: كيف كانت نظرة أبي حيان إلى حضارة العرب في الجاهلية؟! وهذا جزء من حوار الأزمنة، والأحوال، وجزء من علمانية أبي حيان وموضوعيته، وسبقه على أبناء عصره، وتقدمه في وعي مبكر أدرك به سقوط الحضارة العربية الإسلامية، بيد أنه لم يصرح بذلك، وإن أوماً؛ لانشغاله بمحاولة رتق الخرق، وجمع الكلمة، فقد كان الحوار الحضاري الداخلي موضوعه الأكبر في الإمتاع والمؤانسة، وهمه الأول، وكان هم الوزير البويهبي ابن سعاد أو ابن

(2) الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شعاع شيرويه الديلمي المصنف (445 - 509هـ) تحقيق: السعيد بن بسوي، زغلول، بيروت

— دار الكتب العلمية، ط 1، 1986م: 419/3.

(3) نهج البلاغة: اختيار الشريف الرضي، شرح: محمد عبده، بيروت — منشورات المكتبة الأهلية، [د.ت]: 35/4.

من الوحدة إلى الفرقة، ومن الدين الجامع إلى المذهب، ومن الدولة الواحدة إلى دول الأسر المتصارعة.

وهذا يعد قاعدة تسوخ مواقف أبي حيان من أهل التاريخ الذين لم يموتوا بغير أجسامهم، وظل الناس دهرًا طويلًا يصلحون لهم أفكارهم ومواقفهم، أو يزينونها للحياة ظناً منهم أن التاريخ يعيد نفسه، وما تتغير لديهم سوى صور الأشخاص، وأسماؤهم أحياناً، وتبقى الروح واحدة. وليس أبو حيان إلا واحداً من أبناء زمانه، فقد أسهم معهم في كل ما فعلوه في إعادة بناء صورة الماضي لشدة علاقتها بما يجري بأيامه، فأبدى موقفه من الدورة الحضارية وموقع العرب بين الأمم، وأماط اللثام عن رؤيته للدولة الأموية والعباسية في عهود قوتها، وأبدى صوراً شتى للفرق الإسلامية المتعددة، فماذا قال...؟

* العرب والحضارة:

تناول أبو حيان مسألة الدورة الحضارية في سياق إجابته عن سؤال الوزير، أتفضل العرب على العجم أم تفضل العجم على العرب؟ وكانت خلاصة الليلة أن أبا حيان فضل العرب على سائر الأمم باضطرار الفطرة واختيار الفكرة⁽⁷⁾، أو العقل والدين⁽⁸⁾، وبين أن تفضيل أمة من الأمم في صفة أو أكثر لا يعني أن هذه الصفة لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة في عموم أبنائها⁽⁹⁾.

ولبيان سبب اختلاف العرب الحاضرين في عصره بوعيمهم وشيمهم عن الذين وصل إلينا من التاريخ خبرهم، جاءنا أبو حيان بقوله:

((وما هنا شيء آخر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالة عليه، والإيماء إليه. وهو أن كل أمة، لها زمان على ضدها. وهذا بين مكشوف إذا أرسلت وهمك في دولة يونان والإسكندر... ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أي الناس وجدتكم أشجع، فقال: كل أناس في إقبال دولتهم شجعان.

وقد صدق؛ وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها أفضل وأنجد وأشجع، وأمجد وأسخى وأجود وأخطب، وأنطق وأرأى وأصدق؛ وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم، إلى شيء شامل لأمة أمة، إلى شيء حاو لطائفة طائفة، إلى شيء غالب على قبيلة قبيلة، إلى شيء معتاد في بيت بيت، إلى شيء خاص بشخص شخص، وإنسان إنسان؛ وهذا التحول من أمة إلى أمة، يشير إلى

⁽⁷⁾ انظر: الإمتاع: 74/1.

⁽⁸⁾ انظر: الإمتاع: 87/1.

⁽⁹⁾ انظر الإمتاع: 74/1.

فيض جود الله - تعالى - على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله⁽¹⁰⁾.

فالحضارة تتحول من أمة إلى أمة - وأراد بالأمة القوم كالفرس، والعرب والروم - وذلك بحسب استعداد الأمة، وقدرتها على الاستجابة لنداء الحضارة، وهي عرضة لكل أمة، فإذا جاء زمانها، وتمت الاستجابة قامت الغلبة على ضعفها القديم، وعلى ضدها من الأمم، وفقاً لقوله - تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس)⁽¹¹⁾ فتنهار الحضارة عند أمة، وتنهض بها أمة أخرى، فإذا بدأ انحسارها يكون أطواراً، فينحسر الوعي الحضاري من الأمة إلى الطائفة - وأراد بالطائفة المجموعة من الناس الذين يجمعهم اجتهاد فكري واحد - وينكمش بعد ذلك من الطائفة إلى القبيلة، ومن القبيلة إلى البيت الواحد، ومن البيت إلى الشخص الواحد، ثم يكون التحول إلى أمة أخرى.

ومما جاد به أبو حيان أن الأمم في أوان غلبتها الحضارية تكون متفوقة في القوة المادية بأحائها كلها، وبالقوى المعنوية بالغة بها تمام العطاء في جميع جهات البناء، فإذا غادرت زمن نهضتها تلاشت هذه المعالم شيئاً فشيئاً على نحو ما سلف.

ومما يلفت النظر أن حركة الاستجابة مرتبطة باستعداد الأمة، وبتوفيق الله لها ببذل المجهود لمعالجة العطاء الحضاري الرباني. وفي قوله استجابة الأمة إشارة ضمنية إلى الرسل والأنبياء، فإذا انقضى زمن النبوة جاء زمن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وإذا لم يكونوا ظاهرين جاء زمن المصلحين (طوائف، وقبائل، وأسر، وأفراد) حتى لا يبقى إلا القليل من الأفراد، فتتطبق نقطة النهاية على نقطة البداية، فيتوهم المصلحون أن رتبهم كرتبة الأنبياء، وأن معاودة النهوض ممكنة لمن أخذ بقيم النهوض الأولى في إطار الحنين إلى الماضي، وذلك بمحاكاة حركة النهوض بالانتقال (من الفرد إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى القبيلة، ومن القبيلة إلى الطائفة أو الجماعة أو الحزب، ومن الطائفة إلى الدولة، ومن الدولة إلى الأمة الجامعة للقوميات) أو بقيم نهوض أخرى استجابت لها أمم الغالبيين في عصرهم، مع جهل الفريقين بحقيقة توفيق الله الأمة لتوجيه الأفراد باستجابة تامة على شيء من العناد والمقاومة لدى بعض أبنائنا ممن مازالوا رهائن السياق الحضاري السابق، مما يعود إلى مقدار استعدادها، أو قدرتها على التقبل.

ففي ضوء هذا الفهم للحضارة ذهب أبو حيان إلى تفضيل العرب على جميع الأمم في حال جاهليتهم، وفي حال استجابتهم للجود الإلهي بحضارة الإسلام (نهوضهم). ودليل ذلك مبعوث على وجه ظاهر في الليلة السادسة من كتاب الإمتاع والمؤانسة، مما يجعل هذه الإشارة كافية.

مما تقدم يمكن للمرء أن يضع في حسابه أن ما قدمه أبو حيان من نقد للطوائف الإسلامية التي يظن أنه قد آل إليها مشعل الحضارة، يقع في إطار الإقرار بالانتقال (السقوط) من وعي الأمة إلى

⁽¹⁰⁾ الإمتاع: 75/1.

⁽¹¹⁾ سورة آل عمران: 140/3.

وعى الطائفة المقنعة بقناع الدين تارة، وبقناع القومية تارة أخرى، وبعباة القبيلة أو العشيرة تارة ثالثة؛ مما يشير إلى رتبة أدنى في الانهيار الحضاري إلى أن يصل السقوط مداه فلا يبقى في إطار الوعي الحضاري سوى عدد من الأفراد الذين تعجز صيحاتهم عن وقف السقوط عند حد من الحدود الدنيا، فماذا قال أبو حيان في كل طور من أطوار السقوط؟ ماذا قال للساقطين؟ وماذا قال للمقاومين في غير زمن الاستجابة؟!

*عرب الجاهلية:

الحديث عن عرب الجاهلية حديث عن أمة تستعد لتقبل الجود الإلهي، والتحول الحضاري من الشتات إلى التوحد، ومن القيود إلى الحرية، ومن الفوضى إلى الالتزام والمسؤولية، ومن هدر الطاقات إلى اجتماعها راية وقيادة، وفكرة ودعوة، وحركة وانقلاباً شاملاً في الحياة ولها.

فهي صيحة البداية التي تنام عليها نقطة النهاية، وحديث عن أمة العرب بمعنى الجنس، وحديث عن استعداد الجميع للنهوض من الأمة إلى الفرد، ومن الفرد إلى الأمة، من غير أن ينفي ذلك وجود أنصار للمرحلة السابقة ممن تأخر وعيهم باليقظة فلم يهجروا السبات الطويل إلا متأخرين، أو ممن لم يجدوا في أنفسهم قدرة على الاستجابة لنداء الجود فكانوا من المحرومين نعمة الوعي الحضاري.

إن الحديث عن العرب ونصرة أبي حيان لهم في جاهليتهم وإسلامهم يتناول العرب دولاً وأممًا، وشعوباً، وقبائل، وأفراداً، ولغةً، وتاريخاً، وعقيدة وشرعية، مما يحتاج إلى موسوعات تسع هذا الرصيد الضخم في كل جهة من جهات القوة والضعف. ويكفي هنا الإشارة الدالة إلى حديث أبي حيان عنهم موازناً بين العرب والأمم الأخرى في الجاهلية، فساق للوزير البويهى ثناء ابن المقفع الرجل الفارسي على عرب الجاهلية، وقد تساءل في سوق المربد: أي الأمم أعقل؟! فظنه الحاضرون يريد الفرس، فلم يجد إجابة شافية عندهم، فردوا الأمر إليه، فأجاب:

((قال: العرب... ف والله لوددت أن الأمر ليس لكم ولا فيكم، ولكن كرهت إن فاتني الأمر أن يفوتني الصواب، ولكن لا أدعكم حتى أبين لكم لم قلت ذلك؛ لأخرج من مظنة المداراة، وتوهم المصانعة: إن العرب ليس لها أول تؤم، ولا كتاب يدلها، أهل بلد قفر، ووحشة من الإنس، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله.

وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض فوسموا كل شيء بسمته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه، وأوقاته وأزمته، وما يصلح منه في الشاء والبعر.

ثم نظروا إلى الزمان واختلافه فجعلوه ربيعاً وصيفاً، وقظياً وشتوياً، ثم علموا أن شربهم من السماء، فوضعوا لذلك الأنواء؛ وعرفوا تغير الزمان فجعلوا له منازل من السنة؛ واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها، فسلكوا بها البلاد؛ وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المنكر، ويرغبهم في الجميل، ويتجنون به على الدناءة، ويحضهم على المكارم؛ حتى إن الرجل منهم — وهو في فج من الأرض — يصف المكارم فما يبق من نعتها

كتاب يهديها كأم أهل الكتاب، لكنها صحة الفطرة واعتدال البنية مما يأتي به التوفيق الإلهي بتأثير البيئة، وإلحاح الحاجة، وذكاء الفهم.

ودفع أبو حيان شيئاً من حجج الشعوبية التي جاء بها الجيهاني فقال أبو حيان فيه: ((وهو يسب العرب، ويتناول أعراضها، ويحط من أقدارها، ويقول: يأكلون اليرابيع والضباب والجرذان والحيات.. قال: ولهذا كان كسرى يسمي ملك العرب: (سكان شاه) أي ملك الكلاب، قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها، والذئاب وأطلائها، وكلاماً من هذا الصوب))⁽¹³⁾

هذا قول منسوب لكسرى يذم أكل العرب، وأوطانهم، ويشبههم بالكلاب والذئاب، وهو كلام يتناوله أبو حيان بالمعالجة العلمية، إذ يقول: ((أنراه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي، وتلك الفياقي، والموامي كل كسرى في الفرس، وكل قيصر في الروم، وكل بلهور كان بالهند.. ما كانوا يعدون هذه الأحوال؛ لأن من جاع أكل ما وجد.. حباً للحياة وطلباً للبقاء))⁽¹⁴⁾.

فالضرورة التي تهدد حياتهم وبقاءهم دفعتهم لأكل أكلوا، ولو أن ملوك العالم وضعوا في بيئات العرب ما فعلوا أكثر مما فعله العرب. وإذا تغير شرط الضرورة فللعرب شأن آخر، يكشف عنه أبو حيان بقوله:

((على أن العرب - رحمك الله - أحسن الناس حالاً وعيشاً إذا جادتهم السماء، وصدقتهم الأنواء؛ وازدانت الأرض فهدلت الثمار، وطردت الأودية، وكثر اللبن والإقط... وفكوا الأسرى... وتنافسوا المعروف... على جاهليتهم الأولى والثانية))⁽¹⁵⁾

هنا يكون موضع التفاضل عند القدرة على الاختيار، وليس في مواضع الاضطراب التي أشار إليها الشعوبيون، وهنا أيضاً تبرز مدنية العرب في الجاهلية، وهي المدنية التي كانت وعاء لاحتواء حضارة الرسالة الخاتمة.

ويرصد أبو حيان حال العرب عندما جاء وقت نهوضهم الحضاري، بقوله: ((وقد رأيت حين هبت ريحهم، وأشرقت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونصرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية، كيف تحولت محاسن جميع محاسن الأمم إليهم؟ وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها، أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه النواذر من المآثر عفواً، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهواً رهواً، وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوقيفه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلى مستحقه باختياره، ولا غالب لأمر الله، ولا مبدل لحكم الله...))⁽¹⁶⁾

⁽¹³⁾ الإمتاع: 79 / 1.

⁽¹⁴⁾ الإمتاع: 80 / 1.

⁽¹⁵⁾ الإمتاع: 81 / 80 / 1.

⁽¹⁶⁾ الإمتاع: 81 / 1.

وهذا يؤكد حقيقتين: الأولى أن الله - عز وجل - يعرض الحضارة على الأمم، فمن تخيرها وكان قادراً (قدرة الاستعداد والطاقة والاجتهاد) على حمل مشعلها، ومستجيباً لمقتضياتها جاءت الحضارة فبدت للآخرين شراً أريد بالعرب، وكان مقدمات لخير كثير جاد به العرب، وجاءهم بهذا الاستحقاق وهذا الاختيار منهم ولهم، وبهذا الفضل وقعت محاسن الأمم عليهم التمسها المؤرخون برحم الفاتحين العرب، والتمستها الأمم بالفضائل التي كانت - من فضائلها - محمولة في قلوب الفاتحين وسلوكهم. وهذا يدل على حسن اختيار العرب حملة الرسالة، فقد أخذوا فضائل الأمم أي حضاراتها (المدنية) ولم يأخذوا كل ما وقع تحت أنظارهم؛ ذلك أن الحضارات القديمة فيها فضائل تحمي بقاءها خالدة، وفيها أمراض وعيوب تحمل عوامل فنائها، فاجتنب العرب بداية عوامل الفناء، وتعلقوا بعوامل البقاء فدام سلطانهم زمناً طويلاً، وزال عنهم عندما أخذوا بعوامل الفناء، ولا معنى لقول الجبهاني:

((مما يدل على شرفنا وتقدمنا وعزنا وعلو مكاننا، أن الله أفاض علينا النعم، ووسع لدينا القسم، وبوأنا الجنان والأرياف، ونعمنا وأترفنا. ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعذبهم، وضيق عليهم وحرّمهم، وجمعهم في جزيرة حرجة... وبهذا يعلم أن المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة))⁽¹⁷⁾ فقد غاب عنه أن هذا الأمر كان باباً لتحريك العقول وزيادة الفطنة، ولم يكن — كما يقول أبو حيان — مقياساً للتفاضل بين الأمم من جهة أنه لا اختيار فيه، و((أن المدار على العقل الذي من حرمة فهو أنقص من كل فقير، وعلى الدين الذين من عري فهو أسوأ حالاً من كل موسر...))⁽¹⁸⁾

فأبو حيان يرى أن التفاضل إنما يقوم في الأمور الاختيارية، وليس فيما لا خيار للإنسان فيه، فليس في انتماء الإنسان إلى عرق من عروق البشر فضيلة في نفسه؛ لأنه لم يتخير عرقه بنفسه بل أكره عليه، وليس الإنسان متخيراً وطنه قبل أن يولد، بل كان ذلك من الاضطرار، وليس من جهة الاختيار، فأبطل التفاضل فيما لا اختيار فيه، وأرسى مفهوم التكيف مع البيئة التي يوجد فيها الإنسان، وجعل الفضل يعود إلى حسن التدبير في سبيل الحفاظ على تيار الحياة، بالتماس قوانين البقاء.

بهذا القول يتبين أن العرب في الجاهلية كانوا يصنعون بقدر الله لتلقي مشعل الحضارة، وأنهم هبوا في كل جهات القيم المادية والمعنوية، جمعوا فضائل الأمم من الحضارات التي عرفوها قبل الرسالة، أو التي غلبوا على قيادها بالفتح، فروح الخير واحدة من أي جهة أتت، وأبو حيان لا يفرق

$$.86 / 1 \text{ يٲٲٲٲ}^{(17)}$$

(18) الإمتاع: 1/87.

بين الأمم وحضاراتها على طريقة الشعوبية. وأصل نظريته مبني على المساواة بين الأمم⁽¹⁹⁾. وقوله في الأمة الناهضة يقع على دولة الرسول ودول الخلفاء الراشدين. مما يقتضي الحديث عن دولة بني أمية على أنها دولة هبة لاحقة لكنها تعد من أواخر هبات الحضارة العربية التي فجرتها دعوة الرسول، فكيف نظر أبو حيان إليها؟ وهل هي طور من أطوار الانتقال من وعي الأمة على وعي الطوائف والقبائل؟ هل كانت ذروة اكتمال البناء، أو أنها كانت خطوة في الانتكاس إلى الوراء، وبذرة داعية إلى الفناء؟ هل كانت طوراً ممهداً للانهايار والسقوط؟ وهل تسقط الحضارة بانهايار الدولة؟ أين تقع الدولة الأموية في المقياس الحضاري لأبي حيان؟ متى ترتفع قيمتها الحضارية؟ ومتى تسقط قيمتها التاريخية؟

*دولة بنى أمية:

مهما يقل الناس في شرعية تحول الحكم من نظام الشورى إلى نظام الوراثة فإن الأمويين استطاعوا أن يسيروا بالصحو الحضارية العربية الإسلامية حيناً من الدهر، فكانت تواصل بحركة النهضة الأولى، وكانت استجابة الأمة الإسلامية للقيادة العربية الأموية مؤشراً إلى أن الهبة ما زالت مستمرة، على شيء من غلبة حزب على غيره من الأحزاب، ذلك أن اعتبار مصلحة الأمة عند جميع الطوائف ما زالت مقدمة على مصالح الطائفة الواحدة، واعتبارات الصحو الحضارية ما زالت مقدمة على اعتبارات الطائفة، وما كان للذين قدموا مصالح الطوائف — وهم قلة — على مصالح الأمة، واعتباراتها على اعتبارات الأمة سوى الهزيمة على صعيد الحرب، وعلى صعيد التأييد والنصرة لقيم الأمة الأصيلة التي يتم النهوض بها، من غير اعتبار لقدسية اجتهاد هذه الطائفة أو تلك، أو زاوية نظرها العقدية، فما زال صوت الهبة قوياً عند عموم أبناء الأمة، لا يزعه شيء من صيحات الصائحين أو بكائهم، وما زالت قوة الدفع إلى الأمام أشد من نداء التوقف أو المحاسبة، فقد رأى الأمويون في أنفسهم وفي الجماعة من حولهم رغبة في تخطي النص ومقتضياته إلى مقتضيات الواقع فانتقلوا إلى فقه الواقع ومقتضاه، رغبة في محاكاة الأمم المجاورة، وهي عند أصحاب النص نقطة ضعف قادت إلى تدمير مدينة الحضارة وعقلها، وانتقالها تدريجياً من الجهة السماوية إلى الجهة الأرضية. ففي وهمي أن أبا حيان يرى الدولة الأموية امتداداً لنظام الصيحة الحضارية التي أرساها الرسول ﷺ لذلك دفع عنهم تهمة خصومهم القائلين بأنهم اغتصبوا حق آل البيت — رضي الله عنهم — في الخلافة والحكم، بعد أن ذكر موقف عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي — رحمه الله — من رسالة فاطمة بنت الحسين — رضي الله عنه — وتعجب الوزير من علم بني أمية بالدين وعلمهم بمنزلة آل البيت من النبي — ص — فقال:

(19) انظر: البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، بتحقيق: د. وداد القاضي، بيروت - دار صادر، ط 1408هـ - 1988م: 1

((وكان مروان إذا جرى بينه وبين معاوية كلام قال لمعاوية: والله إنني لأبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وما بقي إلا عشرة، حتى يكون الأمر في، فيقول معاوية: أخذها - والله - من عين صافية))⁽²³⁾.

واضح أن أبا حيان يقصد أنصار آل البيت بقوله، وهم الذين يعترضون على شرعية الحكم الأموي، فأراد أن يكسر الحجة النصية بالواقع التاريخي للأمويين الذين كانوا ولاية للرسول، وبالنبوءات فجاء برواية ابن الكلبي الذي يعده علماء الحديث متروك الحديث⁽²⁴⁾ غير أنه ثقة عند مخالفهم، والاحتجاج بقوله ليس من باب تصديقه؛ بل من باب إقامة الحجة على طريقة شهادة الخصوم في الرأي أو الاجتهاد، وهي أبلغ من شهادة الأنصار مراعاة لأحوال المخاطب، وزمن الخطاب.

ولا أظن أبا حيان يحتج بهذا النص، أو بهذا الإسناد لو كان يخاطب من كان على رؤيته في اجتهاد الفقه. ولا حجة بالنبوة التي ذكرها لأنها غير ثابتة، وفي كتب السير من الموضوعات والأحاديث الضعيفة ما يجعل الاحتجاج بها من باب معاضدة الروايات الأخرى.

لا شك في أن أبا حيان يدرك أيضاً أن ولاية هؤلاء ليس لها دخل بانتقال الخلافة إليهم، لأنها انتقلت إلى الخلفاء الراشدين قبلهم، ولم يحتج الأمويون بمثل هذه الحجة على خصومهم، وكانوا أولى من أبي حيان بها، وكانوا أهلها. لكن أبا حيان كان مشغولاً بالدفاع عن رؤيته للدولة الأموية التي حملت الرسالة إلى الدنيا، فأراد أن يصلح لها شأنها في وجه السقوط الحضاري المشهود أمام عينيه في أيامه، فبدت له أيام بني أمية أيام العرب وهبتهم على نزولها رتبة صغيرة عن عصر الرسول والراشدين، قمة سامية قياساً بحكم العجم من بني بويه وسواهم بحضارة بني العباس، وتحت راياتهم.

فدولة بني أمية - إذا قيست بدولة الراشدين - منخفضة السوية قليلاً، ضعيفة البنين، تجمع عصبية الجاهلية في بعض النفوس وقوة الرسالة السماوية على ميسم الحضارة. وتعد قوية إذا ما قيست بدولة بني العباس في زمنه وغلبة العجم على سلطانها، وقد رشحوها للقسمة والسقوط والانهييار. هذه الرؤية الحضارية التي عرضنا لها هنا تعد إبرازاً لفكرة دورة الحضارة العربية في ثلاثة أطوار متلاحقة تعكس عقلية أبي حيان، ونظراته التي تغلفت بالإصلاح والتصوف والفقه على ما بين هذه النزعات من صراع في متون الغايات وتوجهاتها، وتوحد في ساحات الإصلاح.

وتجلى حوار الحضارة العربية (الجاهلية والإسلامية) بالالتقاء على جوانب الاختيار والعقل والاستعداد والتلقي في شروط مادية ومعنوية تجعل حركة القوم أساس النشاط الحضاري، فكانه

⁽²³⁾ الإمتاع: 74/2.

⁽²⁴⁾ انظر: سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت - دار الفكر، ط1، 1417هـ - 1996م 434/6.

واستبدادهم كالفرع، وفيما اشتركوا المحمود والمذموم... إلا أنهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسموا أشياء بين الفطرة والتنبية، وبين الاختيار والتقدمة، فصار:

الاستنباط والغوص والتفكير والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر ليونان، والوهم والحدس والظن والحيلة والتخيل والشعبذة للهند، والحصافة واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والسحر باللسان للعرب، والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والربوبية للفرس، فأما الترك فلها الشجاعة، والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة، وليس بعد هذا للترك حظ ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص. والعرب مع منطقها البارع لها المزية المعروفة على الترك في السياسة...⁽²⁵⁾

وأردف ذلك بقوله: ((ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وجولانها في كل مجال، وتميزها باللسان فقد كابر، ومن أنكر تقدم يونان في إثارة المعاني من أماكنها، وإقامة الصناعات بأسرها، وبحثها عن العالم الأوسط والأسفل فقد بهت. ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدبيراتها، وترتيب الخاصة والعامة فقد عاند، وهكذا من دفع ما للهند...⁽²⁶⁾

كلام أبي سليمان المنطقي صريح في الإشارة إلى فضل الأمم السابقة والمعاصرة في حضارتها للحضارة العربية الإسلامية، وأن الحضارة الناهضة على تواصل بالحضارات السابقة أخذت وأعطت، وأن الشعوب ليست خالية الوفاض، وأن مدنياتها محمولة بحضارتنا العربية الإسلامية، على أن لكل أمة جهة ثابتة لها، على تفاوت بين أبنائها فيها، وعلى تفاوت بين الأمم نفسها، ولولا ضيق المكان والزمان لكتبت كتاباً في جدل الحوار الحضاري عند أبي حيان، وحسبك مثلاً واحداً هنا يدل على ترحيبه بثقافات الأمم الأخرى التي قاسمت العرب مسؤولية حمل الرسالة، وهم الفرس، ذلك أن نظرتهم إليهم تأخذ مسارين الأول يتناول التيار الشعبي الحاقدي على العرب، وهنا بث أبو حيان رأيه فيهم مقنعاً بالرواية — على طريقة ناقل الكفر ليس بكافر — قاصداً هدم آراء الشعوبيين بما تخيره من روايات تدفع مذاهبهم في العرب حتى استوى عند عرب الجاهلية وعرب الإسلام، فكان عالماً متجرداً من تبعات الهوى من هذه الجهة. والمسار الثاني توجه إلى حكم الفرس لأنها وليدة حضارة قوية، ولأنها من أعمدة البنيان الحضاري الحية الخالدة التي تعبر عن قوانين الخلود في بناء الإنسان والعمران معاً، وذلك في قوله:

((كانت الفرس تقول: مَنْ قدر على أن يتحرز من أربع خصال لم يكن في تدبيره خلل: الحرص، والعُجب، واتباع الهوى، والتواني.

لقد صدقت الفرس في هذا، والأمم كلها شركاء في العقول، وإن اختلفوا في اللغات، ولا أحد قد نطح إلى الكمال، وتطاول إلى الفضل إلا وهو يعلم: أن الحرص يسلبُ الحياء، والعُجب يجلبُ

⁽²⁵⁾ الإمتاع والمؤانسة: 211/1.

⁽²⁶⁾ الإمتاع والمؤانسة: 212/1.

المقت، واتباع الهوى يورث الفضيحة، والتواني يكسب الندامة، ولا أحد أيضاً إلا وهو متسم بهذه الأشياء على التفاضل الواقع، نسأل الله الهداية والعصمة⁽²⁷⁾

أبو حيان يقسم دفعا لإنكار المنكرين أن الفرس صادقة في قولها؛ ذلك أن حركة الشعوبية حاولت الانتقام من العرب الذين أجهزوا على تخلف الدولة الفارسية، وانتقلوا بها من الظلمات إلى النور الجديد، من غير أن ينسوا القيم الإيجابية الخالدة في حضارة الفرس ومدنيتهم مما يتصل بثوابت الإنسان المدني مهما يكن عرقه أو موطنه، ولم يجعل العرب بيبضا متفوقين بل قال: والأم كلها شركاء في العقول، وإن اختلفوا في اللغات. وهذه مساواة مبكرة في وعي العلماء الذين حملوا حضارات الأمم من جهة ثقافتها ومدنيتها، وهو يعرف ما يختار وما يدع، ولن تجد أبا حيان يذم أمة من الأمم، أو طائفة من الطوائف، دع عنك وصفه للأشياء كما هي، فإذا كانت تحمل ذما عندك فهي عند أصحابها كبرى اليقينيّات لا يضر أصحابها ما تعيبه عليهم من رؤيتهم أو واقعهم. وأبو حيان يقر بإنسانية ما قدمه الفرس في الجاهلية من مثل هذه القيم، فلا يكتفي بنقلها. والقسم على صحتها بل يتعدى ذلك إلى شرحها وتأصيلها ليتم قبولها وشيوعها في ضوء حاجة الناس إليها في أوقات التفسخ والتفكك والاستغناء بالكلام.

سقت هذا الرأي ليعلم أن أبا حيان يفضل العرب إن كان الأمر دفعا لآراء الشعوبية جريا على منطقها، فإذا عاد إلى نفسه عاد إلى المساواة بين الأمم أصلا وتفوق بعضها على بعض من بعض الجهات فرعا كالذي حكاه عن شيخه أبي سليمان المنطقي، فاجتمع في هذه الفقرة موقفان لأبي حيان هما تأكيد حقيقة التفاعل الحضاري بين العرب وشركائهم الفرس في ظل الرسالة ووحدة الأمة، واحترام فرس الجاهلية كما احترّم عرب الجاهلية من غير تفرقة، ولا تمييز، ذلك أنه يرى أن للحضارة روحا واحدة لا تزول بانتقال مشعل الحضارة المادية من أمة إلى أخرى، فتعلق أبو حيان بحبال القوة في كل حضارة، وحاول اجتنب حبال الضعف، ولم يعرض لها إلا على أنها دالة على الوهن.

*الحوار بين النحو العربي والمنطق اليوناني:

تناول أبو حيان التوحيدي قضية النحو العربي والمنطق اليوناني، فعرض لها مرتين: الأولى حكاية عن مجلس يصور حرارة الجدل بين العلماء، وحمية العرب في الدفاع عن نحوهم العربي، وذلك بما حكاه من مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة 326 هـ⁽²⁸⁾، بين أبي سعد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي (280 - 368هـ) وأبي بشر متى

⁽²⁷⁾ البصائر والذخائر: 228 / 1.

⁽²⁸⁾ ذكرى في المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، بتحقيق: حسن السندوي، الكويت - دار سعاد الصباح، ط2، 1992م: 68، أن المجلس عقد سنة عشرين وثلاثمائة، وهو خطأ مطبعي، أو سهو من المحقق الفاضل وهو تن عن الإمتاع.

ابن يونس القناني⁽²⁹⁾ (328هـ) وحضر المجلس عدد من أهل الفضل والعلم ذكرهم أبو حيان، وكان الحوار ساخناً أنتصر فيه أبو سعيد السيرافي على أبي بشر متى؛ ذلك أن المجلس عقد قبل وفاة أبي بشر بستين، فأعانه عليه أنه أدركه في أواخر سني عمره، وكان السيرافي في سنة المجلس قد بلغ السادسة والأربعين من عمره، أي كان في ذروة تفقهه وتمكنه فطنة وذكاء، وكان متى قد بلغ من عمره أواخره، وأعانه عليه أن الوزير ابن الفرات كان راغباً في هزيمة الثقافة الوافدة، ومتمحماً للنحو العربي؛ لأن النحو منطق العرب كما يقول.

ولست محتاجاً إلى بسط المجلس وشرح ما جاء فيه، ذلك أن المراد منه مقاصده، فقد سكت أبو حيان على ما دار في المجلس، تنبيهاً للوزير البويهري على حجج العلماء العرب للنحو العربي، وحرصهم عليه، بيد أنه جعل ذلك موقفاً مروياً، مقبولاً في سياقه الحضاري والاجتماعي، لكنه من الجهة الثانية غير مقبول عنده في صفاء عقله، وحضور فطنته، وخلوته بشيخ أبي سليمان المنطقي الذي جعل للنحو العربي حيزاً مختصاً بلغة العرب، وأعطى المنطق اليوناني حيزاً يتعدى لغته اليونانية إلى كل ذي عقل مهما اختلفت لغات الناس⁽³⁰⁾ فكانه بهذا الرأي يرى أن ما كان بين المتناظرين ليس سوى سوء فهم لوظيفة كل من النحو العربي، والمنطق اليوناني، وأن أبا بشر لم يحسن عرض موقفه، فليس بين العلوم تدافع إذا اختلفت جهات الدلالة: وظائفها، وطرانقها، ومادتها المدروسة على ما بين المنطق واللغة من تداخل في المادة المدروسة نحوياً ومنطقياً.

فالمصراع حاضر في مجالس الساسة وأصحاب الاجتهاد الحي، لكنه غائب عن عقل أبي حيان إذا تعلق بحقيقة ثابتة، أو حكمة نათية، وكامن في عقله وتوجيه رواياته توجيهاً يخضع لرواه العميقة في الاختيار المتبصر ليدخر لأبناء أمته خير الحضارات، وليجتنبوا شرور الجرائم الفاتكة في بناء الحضارة الساعية بها إلى حتفها.

***الفلسفة اليونانية والشريعة العربية:**

سعى اليهودي وهب بن يعيش الرقي بنشر الفلسفة اليونانية، وأراد الفصل بينها وبين الهندسة والمنطق لصعوبتهما على العامة، بغية الحفاظ على التخلف العلمي والعملية من جهة، وشيوع الفلسفة التي صاحبها حركة الزندقة، وألف رسالة بهذا الشأن، وصل خبرها إلى الوزير ابن سعدان الذي سأل أبا حيان عنها فقال أبو حيان: ((فكان من الجواب: قد عرفت مذهب ابن عيش في هذا الباب — وهو جاري — وكتب هذه الرسالة، على هذا الطراز، إلى الملك السعيد، سنة سبعين، وتقرب بها، ونفعته بالمسألة و التقفد له))⁽³¹⁾.

(29) انظر: الإمتاع والمؤانسة: 1/108.

(30) انظر: المقاييسات: 169، المقاييسات: 22.

(31) الإمتاء والمؤانسة: 105/1.

فابن يعيش كان جارا لأبي حيان، يرى هوى الدولة البويهية، ويسعى للتخلص من هواها المذهبي بإبعاد الدين عن السياسة، والإشارة إلى الفلسفة عليها تؤلف منهاجاً بديلاً للقرآن في تحصيل السعادة والهداية، وإبعاد الناس من شغب أهل المذاهب، وسياسة تقريب الناس من الدولة وفق انتماءات مذهبية، ذلك أن الإسلام في أصلاته الأولى لا يفرق بين رعايا الدولة على أسس مذهبية.

ونلاحظ سماحة أبي حيان في شفاعته لجاره اليهودي بفقره، وسماحة الحاكم البويهي بتفقد أحواله بعد أن رآه يحط في هواه، لكن أبا حيان لم يترك دعواه من غير رد في كتاب الإمتاع نفسه، وفي كتبه الأخرى بما أورده على لسان عدد من العلماء يبطلون هذه الدعوات، فكان رفيقاً بالوزير، بعيد النظر في شأن التدرج بأفكاره المفضلة، فيعرض لها على لسان غير الوزير، فإذا وجد لها استحساناً عنده عرض لها عرض الشارح الموحى بضعف المذهب لضعف الدافع أو مكروه، ورد شيوع الفكرة لاستحسان الحاكم لها، وليس لقوة في طبعها، وكان يعرض لها في موقع آخر دافعاً ومفنداً، بلسانه أو لسان غيره.

ومن زاوية أخرى للإصلاح نهض إخوان الصفاء وخلان الوفاء بدعوتهم القائمة على طور المعاشية بين الفلسفة والشرعية بغية تخليص الدين من الشوائب التي لحقت به، في مسيرته الطويلة، فعرض أبو حيان لهم بقوله:

((وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشرعية العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في أجزاء الفلسفة، علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرستاً، وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وكتبوا أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ولقنوها للناس، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله - عز وجل - وطلب رضوانه؛ ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها، وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية، والأمثال الشرعية والحروف المحتملة، والطرق الموهمة))⁽³²⁾

فأبو حيان يوحى بموقفه من إخوان الصفاء في أثناء عرض رأيهم، فهو رافض له، إما لعلمه أن الوزير لا يطمئن إلى هذه الحركة الناهضة، وإما لأنه يدرك خطرها، وليس في اعتراضه الظاهر عليها محض رأي شخصي، فأراؤه تخضع لسياق الحياة، وسياق الحديث في مجلس الوزير، أو سياق التصنيف للكتاب، وقد فند رأي إخوان الصفاء بلسان الحريري غلام ابن طرارة، بحجج تحتاج إلى فضل وقت لعرضها ومناقشتها، وقد بثها في الليلة السابعة عشرة، وحسبك من أدلته قوله على لسان الحريري بعد أن هزم المقدسي؛ وكان نصيراً لأفكار إخوان الصفاء:

((قال: يا أبا سليمان!! من هذا الذي يقر منكم أن عصا موسى انقلبت حية، وأن البحر انفلق، وأن يداً خرجت بيضاء من غير سوء، وأن بشراً خلق من تراب، وأن آخر ولدته أنثى من غير ذكر، وأن ناراً موجهة طرح فيها إنسان فصارت له برداً وسلاماً.. وعلى هذا، إن كنتم تدعون إلى

⁽³²⁾ الإمتاع والمؤانسة: 5/2.

شريعة من الشرائع التي فيها هذه الخوارق والبدايع فاعترفوا بأن هذه كلها صحيحة، ثابتة، كائنة، لا ريب فيها، من غير تأويل ولا تدليس، ولا تعليل ولا تلبيس، وأعطونا خطكم بأن الطبائع تفل هذا كله... ودعوا التورية والحيلة والغيلة، والظاهر والباطن، فإن الفلسفة ليست من جنس الشريعة، ولا الشريعة من فن الفلسفة، وبينهما يرمي الرامي⁽³³⁾.

لا ريب في أن أبا حيان لم يرو هذا الرد الطويل لمعتته فقط، بل رواه ليهدم بنيان حركة أرادت أن تؤصل للفلسفة اليونانية، ولبست ثياب الدين — برأيه — لتكون مجهزة عليه من داخله، فهما دعوتان الأولى لابن يعيش اليهودي تريد تبسيط الفلسفة للناس، وعزلها عن الدين، والزعم بأنها تحقق مقاصده الروحية في الهد بغض النظر عن صورته النصية، من غير صراعات مذهبية. ودعوة إخوان الصفاء القاصدة إلى مزج الدين بالفلسفة مغلبة روح الفلسفة على روح الدين، بعكس أبي سليمان وأبي حيان اللذين مزجا الدين بالفلسفة على نية غلبة روح الدين على قشور الفلسفة.

ولا ريب في أن جوهر الحوار الحضاري كان بين مرتكزات العقل اليوناني، وروائز العقل العربي في اللغة: النحو والمنطق، وفي الفكر: الفلسفة والشريعة، وفي الحركة الاجتماعية الأمم والفضائل. وهو حوار في بؤر التأثير الإنساني.

ولا شك في أن محاولات إخوان الصفاء ومحاولات دفع فكرة ابن يعيش قائمة أصلاً على سلامة النية، والرغبة الحق في نشوء مشروع حضاري ينهض بالأمّة من جديد، ونحسب أنه اجتهد لا يعاب فاعله، وإنما يقدر عمله بمقياس نية أصحابه، ويناقشه من يشاء، ويقبله من يشاء، ويرده من يشاء، كل بقناعته واختياره.

*المواجهة العسكرية:

عندما تعجز الحضارة القديمة عن محاربة الحضارة الناهضة تلجأ إلى القوة لدفع سلطانها عن نفوس أبنائها، خوفاً من الاستيلاء السلمي عليها، مما يتبعه زوال سلطانها، وحلول حضارة أخرى، تعطي الناس بعداً آخر مختلفاً عن سابقه، حتى يقال: إن الحضارة الجديدة تفرق بين الولد وأبيه، والأخ وأخيه، والرجل وصاحبه وبنيه، وفصيلته التي تؤويه، فكل منهم شأن حضاري يغنيه.

فالترجع الحضاري حقيقة واقعة، لكن تراجع سلطان الحضارة لا يتم طوعاً، فلا بد من السيف، ليس للإقناع بل لزوال الحواجز المانعة من حرية الاختيار عند الحضارة العربية القائمة على قوله: (لا إكراه في الدين)⁽³⁴⁾ لكن الحضارات الأخرى تريد أن تفرض ميسمها وثقافتها على الأمم الأخرى بالسيف، أو بالقهر من غير حرية اختيار للناس، وهنا يقع الصدام المسلح بين الأمم والحضارات، ولا بد من الدفاع عن الذات، ولذلك ساق أبو حيان حديث الغزو الفرنجي الرومي على دولة العرب

⁽³³⁾ الإمتاع والمؤانسة: 17/2.

⁽³⁴⁾ سورة البقرة: 256.

أبي حيان ونظرته إلى الحضارات وحوارها، وإنما يدخل ذلك من جهة الوصف، والتشخيص، وليس من جهة الرؤية والتفكير، لأنه صوفي الطريقة.

*الحوار الحضاري في العلم والأدب:

سبقت بعض الإشارات إلى اقتباس أبي حيان بعضاً من حكم الفرس الإنسانية، وهنا لابد من الإشارة إلى الاقتباس العلمي كالاكتساب على كلام علماء من حضارات الأمم الأخرى، والاقتباس الأدبي منها كالأمثال والأساطير المحكية. أما من جهة الاعتماد على الكتب العلمية فحسبنا الإشارة إلى بعض الكتب التي اتكأ عليها أبو حيان محتجاً ببعض ما جاء فيها، أو مستأنساً به، أو واجداً فيه بصيرة للمتبصرين، أو ذخيرة لأبناء أمته اللاحقين من بعده، من ذلك: رسالة أرساطاطليس إلى الإسكندر⁽³⁸⁾، ورسالته في السياسة التي شك في نسبتها إليه⁽³⁹⁾، وكتابه الحيوان⁽⁴⁰⁾، وكتاب ما بعد الطبيعة⁽⁴¹⁾، وكتاب المقالات⁽⁴²⁾، ولأفلاطون كتاب: النواميس⁽⁴³⁾. هذا بعض ما اغترفه من الثقافة اليونانية، ولم يحجزه عنها أنه في أمة تختلف عن أمة الإغريق في الرؤية الكونية، والعراقة القومية، وكان شعاره الحكمة ضالة المؤمن، كما أنه اطلع على كتب الهند⁽⁴⁴⁾. واطلع على كتاب — صار مشتركاً بين ثلاث حضارات هي الحضارة الهندية والحضارة الفارسية والحضارة العربية الإسلامية — هزار أفسان⁽⁴⁵⁾، وهو أصل كتاب ألف ليلة وليلة، وعلى كتاب ألف ليلة وليلة نفسه⁽⁴⁶⁾، وعرض لكتب أثر جيراننا الفرس واضح فيها، من ذلك كتاب آيين خدمة الملوك، لأحمد بن الطيب السرخسي⁽⁴⁷⁾، والأثر الفارسي مكشوف من عنوانه (آيين) وكتاب آيين نامه، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الساماني⁽⁴⁸⁾. ما تقدم يشير إلى أن أبا حيان التوحيدي كان متبصراً بحضارات الأمم علومها وثقافتها، لكنه لم يحتطب بليل بل كان على بصيرة من أمره في اختياره، ومواقفه مما يتخير، على منهج فريد في العرض والوقاية، والرد والرعاية.

*آداب الأمم في الحوار الحضاري:

(38) انظر: البصائر والذخائر: 2 / 1، 64 / 219.

(39) انظر: البصائر والذخائر: 9 / 215 — 217.

(40) انظر: البصائر والذخائر: 9 / 32، 45.

(41) انظر: البصائر والذخائر: 9 / 18.

(42) انظر: البصائر والذخائر: 7 / 219.

(43) انظر: الإمتاع والمؤانسة: 2 / 20.

(44) انظر: البصائر: 2 / 151.

(45) انظر: الإمتاع والمؤانسة: 1 / 23.

(46) انظر: البصائر والذخائر: 1 / 70، 5 / 32 — 37.

(47) انظر: البصائر والذخائر: 4 / 117.

(48) انظر: الإمتاع والمؤانسة: 1 / 78.

وأما ما يتصل بأدب تلك الأمم فإن أبا حيان حرص على غنى ثقافته، وثقافة أبناء أمته بأحسن ما عند الأمم، من ذلك أمثالها، وحكاياتها، وسأقتصر على ذكر بعض أمثال الفرس واليونان، للدلالة على ما وصف بها أبناء هاتين الامتين من صفات تدل على حسن التدبير عند الفرس، والعمق والغنى العقلي عند اليونان.

ولا نريد أن نقدم دراسة حول أي مثال من هذه الأمثال، وإنما نقدمها على أنها عينة مختارة من اختيار أبي حيان التوحيدي، نترك للمتلقي فرصة المتعة الحرة والمشاركة العملية بتذوق الميراث الحضاري الحي من أي جهة أتى.

تخير أبو حيان من أمثال الفرس التي تعبر عن خلاصة تجارب الناس في كل مكان عدداً من الأمثال الموجزة بالقول، والمعبرة بالحدث أو المناسبة، ولو لم تذكر، مع الأقوال، لكنه استعار مواقف تعد من الأمثال التي تستحق أن تضرب للناس ليتعلموا منها.

أما الأمثال فتخبرنا بعضها على طريقة ما قل ودل، من ذلك قول الفرس: ما دخل مع اللين لا يخرج إلا مع الروح، والعرب تقول: اطبع الطين ما دام رطباً، واغرس العود ما كان لدناً⁽⁴⁹⁾. وتقول الفرس: مطرة في نيسان خير من ألف شان⁽⁵⁰⁾.

وقالت الفرس: وجدنا في مهارقنا القديمة: إذا لم يساعد الجد فالحركة خذلان.

وقالت أيضاً: رب لازم لعرصته قد فاز ببغيته⁽⁵¹⁾.

ويضرب بعض الفرس تمثيلاً لحياة الناس في مجتمعاتهم بحياة الحيوان الأعجم بالغابة، لقول بعضهم:

((قال بعض الفرس: الناس أربعة: أسد وذئب وثعلب وضأن. فأما الأسد فالملوك يفرسون ويأكلون. وأما الذئب فالتجار، وأما الثعلب فالقوم المخادعون، وأما الضأن فالؤمن ينهشه من رآه))⁽⁵²⁾

هذه بعض الأمثال الفارسية لتي رواها أبو حيان للدلالة على حسن تدبير الفرس وسياستهم في الحياة، والأمثال عند الأمم برتبة أقوال الأنبياء داعية للتفكير من جهة والعمل من جهة أخرى، لكنها ملزمة من غير شرط للإلزام، ومغرية من غير ثواب ولا عقاب؛ ذلك أن ثوابها في العمل كامن فيها. وفي سوقها دلالة تقدير واحترام من أبي حيان لحضارة أباد العرب سلطانها السياسي، وأفادوا من ميراثها السياسي والثقافي.

⁽⁴⁹⁾ البصائر والذخائر: 96/2.

⁽⁵⁰⁾ البصائر والذخائر: 115/3.

⁽⁵¹⁾ البصائر والذخائر: 153/4.

⁽⁵²⁾ البصائر والذخائر: 194/4.

وأما أمثال اليونان فقد ذكر عدداً منها في موضع واحد وتتبعها بالتعليق على خلاف أمثال الفرس، فذكر من أمثال اليونان:

— إفراط الأنس مقدمة الجراة.

— قوة العزم بنيل البغية.

— جهل العلل يورث الحصر، أي: الجهل بمعرفة المعاد يؤدي إلى الانقطاع.

— جهل القدر يعقب بطراً وخوراً.

— أملك عدوك بغيته.

— عادة الصمت تورث عيأ...⁽⁵³⁾ وتعقب الأمثال بقوله: ((هذه نوادر كلام اليونانيين، وقد مر في

هذا الكتاب، ويمر ما إذا جمعته وأفردته، زادك حسنة، وانتالت عليك فائدته، فخذ منها، ومن غيرها، كل حسن بهيج، نفكك الله بالعلم، وبصرك بالهدى))⁽⁵⁴⁾ فأمثال اليونان — على ندرتها تستحق الجمع والبحث، والإفراد برسالة أو كتاب؛ لأنها تزيد جامعها حسناً على حسنة، وفائدة على ما عنده من فوائد، ثم أردف أبو حيان حديثه عن طبيعة أمثال اليونان وفوائدها بمنهج العام في الأخذ عن الأمم الأخرى، فجعل منهجه في الاختيار قائماً على حسن ما يتخير، وعلى مقدار ما يحقق من متعة نفسية وعقلية، وفائدة من تجارب أهلها، من غير تمييز للحسن على أساس قومي أو حضاري، ذلك أن الجمال والحق صنوان، وهما مطلب كل إنسان متحضر بالمدنية والعمران وضالته.

هذه أمثال اليونان علم وهدى يتداوى بهما، وتلك أمثال فارس مثلها، وتلك غيرهما من خالص تجارب الناس أبناء الحضارات التي زال سلطانها عن الأرض وبقيت تجاربهم الحضارية في مختبر التاريخ تعطي نفعها في كل حين، دالة على آفاق أهلها الحضارية، وشاهدة على عبقرية أبي حيان في اختياراته الدالة على تحضره في التناول والعرض والقصد.

* حكايات الأمم:

تخير أبو حيان حكايات من رحي الحضارة الفارسية، من ذلك حكاية المجوسي وكان من أهل الري واليهودي وكان من جي بأصفهان، وكان المجوسي يركب بغلة، وقد تعارفا في طريق السفر، فظهرت حذقة اليهودي وقدرته على التأثير، فحملة المجوسي على بغلته وأطعمه من زاده، فلما ملك اليهودي البغلة، وأدرك المجوسي التعب تركه اليهودي ومضى بالدابة والسفرة لا يلوي على شيء من توسل المجوسي، فما رحمه، ولا عطف عليه، فدعا المجوسي ربه، فاستجاب له، بعثرة البغلة ووقوع اليهودي أرضاً، فلما لحق به المجوسي رحمه، وحملة على حوار كان بينهما⁽⁵⁵⁾.

⁽⁵³⁾ البصائر والذخائر: 3/ 179.

⁽⁵⁴⁾ البصائر والذخائر: 3/ 181.

⁽⁵⁵⁾ انظر: الإمتاع والمؤانسة: 2/ 157.

هذه حكاية بين فيها أبو حيان أن المجوسي الذي ينظر إليه بعض العرب المسلمين على أنه كافر يعبد الله الذي في السماء وليس كما يزعمون، ولما ظلم دعا ربه فاستجاب له، وأن اليهودي الكتابي عند العرب إنسان مدع ومحتال لمنافعه المادية، فأراد بذلك الكشف عن أثر العقيدة والتربية في السلوك الإنساني، وتغيير الصورة، ونقد أفكار أمته عن الأمم الأخرى.

والحكاية مثل حي مستمر الدلالة؛ ذلك أن مثل الأمة العربية والإسلامية كمثال المجوسي وبغلته إذ وضع المعروف في غير أهله، فقد حمل العرب اليهود يوم شن الغرب حملته لتطهير العالم من شرورهم فاحتضنهم العرب، فكان جزاؤهم ما ترون من عدوان. إنها حكاية واقعية كما يروي أبو حيان بالسند ويحدد المكان وأحسن صنعا إذ ترك تعيين الأسماء، لأن هذين الرجلين يؤلفان أنموذجا إنسانيا لتشويه الأفكار والتربية لإنسانية الإنسان، وتدمير قوى الخير فيه.

وتخير أبو حيان من عطاء الحضارة اليونانية الحكاية الآتية: ((قلت: حكى لنا أبو سليمان، في هذه الأيام، أن ثيودسيوس ملك يونان كتب إلي كنتس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفية، فجمع ماله في عيبة ضخمة، وارتحل قاصدا نحوه، فلقى في تلك البادية قوماً من قطاع الطريق، فطمعوا بماله، وهما بقتله، فناداهم الله ألا يقتلوه، وأن يأخذوا ماله ويخلوه، فأبوا، فتحير، ونظر يمينا وشمالا يلتمس معينا وناصرا، فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء، ومد طرفه في الهواء، فرأى كراكي تطير في الجو محلقة، فصاح: أيتها الكراكي الطائرة!! قد أعجزني المعين والناصر، فكوني طالبة بدمي، والأخذه بثأري، فضحك اللصوص، وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلا، ومن لا عقل له لا جناح في قتله، ثم قتلوه واقتسموه وعادوا إلى أماكنهم؛ فلما اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قاتله، واجتهدوا فلم يغنوا شيئا، ولم يقفوا على شيء، وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلم لقراءة التسابيح والمذكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر وأوب، وجاء القتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل، فهم على ذلك إذ مرت بهم كراكي تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه، فإذا كراكي تصيح وتطير وتسد الجو؛ فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالبا دم كنتس الجاهل — على طريق الاستهزاء — فسمع كلامهم بعض من كان قريبا منهم، فأخبر السلطان، فأخذهم وشدد عليهم، وطالبهم، فأقروا بقتله، فقتلهم، فكانت الكراكي المطالبة بدمه، ولو كانوا يعقلون أن الطالب لهم بالمرصاد))⁽⁵⁶⁾

كما أن العرب يؤمنون بالأقدار المقدرة، وأن الله للظالم بالمرصاد، فكذلك اليونان بحضاراتهم وثقافتهم، لهم مثل هذا الاعتقاد، وضرب لذلك حكاية شدها إلى الزمان والمكان وأسماء الشخصيات ليزيدنا قوة يقين بوقوعها، وربطها بالمشاهير ملك وشاعر، ليدلنا على أن ميسم الحضارة اليونانية ما زال حيا في حضارتنا العربية الإسلامية.

⁽⁵⁶⁾ الإمتاع والمؤانسة: 2/ 154.

مما تقدم يتبين أن أبا حيان كان محاوراً متميزاً باختياره، مبتعداً من مواقع الصدام، مقرأً أن روح الخير في الحضارات كلها واحدة تستقل من أمة إلى أمة، محاولاً التقريب بين الأمم والحضارات، وأنه لا عيب في الأخذ عن الحضارات السابقة إن كان ما يؤخذ حقاً، ذلك أن الحق لا ينتسب إلى شيء، وكل شيء ينتسب إليه، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها تلقفها، وكان أولى الناس بها.

المصادر:

1. الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، بتحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، بيروت - صيدا - المكتبة العصرية، [د.ت.]
2. البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، بتحقيق: د. وداد القاضي، بيروت - دار صادر، ط 1408هـ - 1988م.
3. سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، بتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، بيروت - دار الفكر، ط: 1، 1417هـ - 1996م.
4. الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه الديلمي الهمداني (445 - 509هـ) تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت - دار الكتب العلمية، ط1، 1986م.
- 5- المقابسات، لأبي حيان التوحيدي، بتحقيق: حسن السندوبي، الكويت - دار سعاد الصباح، ط2، 1992م.
- 6- نهج البلاغة، اختيار الشريف الرضي، شرح أ.محمد عبده، بيروت - منشورات المكتبة الأهلية، [د.ت.]

